قضايا التحرّر في الأدب السوداني

بقلم أبو بكر خالد

من حول المساجد (*) والخلاوي (الكتاتيب) واضرحة الاولياء كان جنين الشعر السوداني في عهد الفونج (١٥٠٥ ـ ١٨٢٠) قد اخذ في الاستواء والاكتمال بوجد صوفي وروح بذل وسخاء .

لم تكن هذه الاماكن مؤسسة سلطانية او اقطاعية ، بل عطاء انسانيا يمنح المريد المركزية حينذاك ومن غوائل الدنيا : جوعها وحرها وحزنها ولم يكن شيخ الجماعة سلطانا او طاغية ولكنه بشر كالاخرين من ادم ، وادم من تراب ، يربطه بمريديه وشعرائه وهج الدم والقربى وشجرة نسب لكل انسان موضع فيها ومن ثم التزام وحقوق . وكان الشاعر مزمار الجماعة كلها ، صوت سموقها وعلو شأنها .

وانحدر هذا التقليد ببذله وسخائه ، وجده الصوفي حين نشبت في بلادنا ثورة الامام المهدي في وجه الحكم التركي (١٨٢١) وتعالى الشعر بكبرياء وبطر :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت في شأن الاله حياة

واتسعت المؤسسة الصوفية القديمة لتشمل البلاد بأسرها وعلى رأسها المهدي ـ صوفي القسمات والتربية ـ وانسجم الشعر رواء رائعا مع المنحى التحرري .

وجاء عام ١٨٩٨ ، الذي نسميه في القاموس الشعبي سنة الضربة حيث انتهى السودان الى مستعمرة انجليزية ، وبحت اصداء الثورة المهدية وامتلأت بلادنا بالادارة الجديدة بعد القضاء على الهبات الوطنية المتعددة ، امتلأت بالمفتشين الاجانب وبالاجهزة الادارية الكثيرة وبالرشوة للضمير والعاطفة ، وبالمحاولة اثر المحاولة لكي ينقطع السودان الى الابد عن ماضيه وتنشأ في افئدة وعقول ابنائه عقد النقص واستصغار الشأن .

وبرهة صغيرة واستعاد الشعر روح وجده وبذله ونفذ الى المناسبات الدينية في الموالد وفي الاحتفاء بالهجرة والاسراء والمعراج. وكان الشعر انذاك يتحسس ويجلو للاذهان مواضع فخر الامة واعتزازها، ماسحا بالكلمة الغبار والصدأ اللذين يفرزهما الوجود الاستعماري عليها . كان الشعر بشكله التقليدي وبالبراح والسعة اللذين فيه يطوف على عهد الراشدين ونبي المسلمين ، ويركب موجات الفتح الاسلامي الى الشام وفارس والروم يحمل الهداية والنور في وقت جهلت فيه اوروبا وانكفأت بصيرتها . وكان الشعر ايضا يبث زهو الحضارة الاسلامية ، لكي يملأ رئة الشعب بالفخر والحماسة ويتجاوز احساسا بالضعف ترسب فيه بموقعة (كرري) ، واحساسا بالمذلة يطأه به الوجود الاستعماري .

كان الشعر يعري الصلات المريبة التي اخذت تنتظم الساقطين شرفا ورجولة بالوجود الاستعماري ، وكانت عيون المخابرات وراء الشاعر الشاب ـ مدثر البوشي ـ في مولد ١٩٢٣ حين وقف قائلا :

ارى شرعة الاسلام رثت حبالها وراحت بأمواج الخطوب تلاطم
ارى الحق يبدو للانام ويختفي ولم يبق من بين العشار حازم

الى ان يقول :

فما روع الاسلام الا عمائم تساوم فينا وهي فينا سوائم

وكان الجمهور المستمع على تعبير حسن نجيلة في كتابه (ملامح من المجتمع السوداني) يصرخ بصوت يرعد : اعد ، اعد ، ويا لنا من العمائم التي كانت تساوم في امرنا مع المستعمرين .

وكان جماع هذا العمل الدائب من قبل الشعر ان صان وجدان الجمهور والمتعلمين بخاصة ، من التلف والافساد ، وبهذا الذهن والوجدان كانت فئة المتعلمين من خريجي المؤسسات العلمية تتطلع وتحمل ثورة عام ١٩٢٤ تعبيرا عن رغبة في الانعتاق مرتبطة بمصر عودا الى رابطة النيل قدما واصالة .

ومن تحت نير الفظاظة التي ردع بها المستعمرون ثورة ١٩٢٤ ومن القبضة التي خنقوا وازدروا بها بعد الشعب طائفة المتعلمين من كل هذا كان جيل السخط والغضب عامر الموهبة والقدرة يشق طريقه الى صدارة الحياة الفكرية . كان زخم الفكر والعاطفة يدق بعنف الاشكال القديمة في التعبير ، وكان ذلك الزخم ايضا يرتاد ضروبا من التعبير حديثة ومبتكرة منذ الكاتب (الامين علي مدني) في « اعراس ومآتم »، وحمزة طمبل في « النقد الادبي » ، حتى محمد احمد محجوب في « اتجاهات الحركة الفكرية في السودان » ... وبمقالات التيجاني يوسف بشير ومحمد عشري وعبد الله عشري كان المضمون الجديد الحزين ، الاسى والساخط معا يبحث عن مخطط نقدي يستوعب القدرات الشعرية والادبية الجديدة .. كان تيارا رومانسيا ضاربا في الطبيعة او في القوالب الصوفية ومتأثرا بحركة (الديوان) في مصر ينزع الى هدم الهالة القدسية حول القالب الشعري القديم . وبالسخاء القديم في حركة الشعر السوداني لم يصل هذا التيار الى حد الاغراق والعزوف عن المواجهة مع المستعمرين . كان التيجاني يستأمن من عبير مصر عنادا وتطلعا في وقت يبذل المجهود الاستعماري ليبني الجدران بينها وبين السودان . في هذا الوقت كان التيجاني يغني « رعى الله مستودع الثقافة مصر » كلمة حق وشوق ووطنية حين كانت الصحف والكتب العربية من مصر محرمة على طلبة كلية غردون التذكارية .

وكانت الحياة الجديدة في المكاتب والملابسات الاجتماعية التي تنشأ مع المدن تجد التعبير لدى رواد القصة كعبد الحليم محمد والسيد الفيل وكانت الندوات المغلقة في المنازل حيث الثراء العاطفي والمدارسة والتفاكر ، تشكل بذور حركة اصلاحية نامية واحساسا عميقا بالعودة الصريحة الى المواجهة في حدود الامكانيات المتاحة ، وتبلورت من تلك اللقاءات مدارس فكرية كمدرسة (الفجر) التي اصدرت مجلة ثقافية بنفس الاسم . وتجمعت تلك الروافد جميعها ، روافد السخط والتطلع في مؤتمر الخريجين العام سنة ١٩٣٨ الذي اصطدم فيما بعد ـ وبفعل تأثيرات الحرب العالمية الثانية ـ بالوجود الاستعماري في مذكرة تطالب بتقرير المصير في وحدة مع مصر .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية تأججت الحركة السياسية في البلاد ، واقتحمت حلبة الوغى قوى العاملين في المصانع وفي الزراعة، وفتحت نوافذ بلادنا لحركات التحرر الفكري والسياسي وتفتقت محاولات الشباب المصفود الاقدام عن موجات من الهجرة الى مصر طلبا للمعرفة والعلم وعن مزيد من الاحتكاك بالثقافات الجديدة يربط عن

(*) قدم هذا البحث وفد السودان في المؤتمر الثالث لكتاب آسيا وافريقيا ببيروت .

وعي بين التحرر السياسي والمضمون الاجتماعي .

وافادت حركة القصة السودانية كثيرا من هذا الوعي فكسرت دائرة الموضوعات العاطفية الساذجة واغترفت من مناهل القوى الاجتماعية الجديدة التي اصبح لها وزن وابعاد في الحياة السياسية. تنبهت القصة الى ان هناك انسان يسمى (حجر) عامل بمصلحة السكة الحديد يموت ذات شتاء من خواء البطن بينما يزدرد الاستعمار وعملاؤه طيب الطعام والشراب . ورغم الضعف الفني في (مات حجر) لمحمد سعيد معروف (ومذكرات اغبش) لعبد الله رجب ، فقد استطاعت القصة ان تتولى امر التعرية الاجتماعية وتقديم نماذج بشرية مسحوقة اجتماعيا ينبغي ان تنصرف لها همة حركة التحرر الوطني حيث تنجز واجب جلاء الاستعمار . وعاد للشعر صوت الهتاف جنبا الى جنب مع المظاهرة والموكب والاضراب بعد ان كان هذا الصوت قد خفت في الجيل الماضي تحت وطاة الارهاب والخشية من اعين واذان المخابرات.

وعانق الشعر حركات التحرر واذاع مجدها لناس .. :

الماو ماو .. كوريا ، الجزائر ، وتكاملت قبضة الهتاف عن جعفر حامد البشير في (حرية وجمال) وعند غيره من الشعراء فيما تحمل صفحات الادب والسياسة في الصحف المحلية .

وعاد الشعر الى منصة الخطابة في الحشود الجماهيرية والليالي يقاوم تزييف ارادة الشعب فيما كان يسمى بالجمليات التشريعية . وفي الزهو بمقدرات الشعب في المواجهة الصارمة، وفي اشاعة عطر ذكرى الشهداء والسجناء السياسيين وتوج هذا كله ، باعلان استقلال السودان .

ورانت الفجيعة على حركة الادب حين انفصلت حركة التحرر السياسي عن المضمون الاجتماعي واطرح اولو الامر المضمون الاجتماعي بعيدا ، واضطربت الاحوال في صراع مقيت وفوضوي نحو السلطة، ووهنت وحدة الصف الوطني ، وانتهزت قوى الاستعمار ومواقع التخلف في بلادنا هذه البلبلة لتنصبا طغمة من العسكريين في عام ١٩٥٨ على كراسي الحكم . وكان الادب فيما قبل وبعد ذلك يتأهل على صعيد الثقافات والتجارب الانسانية الجديدة خاصة في حقل التحرر الوطني. فالشعر ينفعل بقدرة من التجديد تنفذ الى اشياء اكثر قدسية في هيكل القصيدة العربية . فيهجر القافية والتفعيلات المنضبطة الى التفعيلة الواحدة الحرة ... وفي القصة يتلاشى الهتاف ، وتطرح الشرائح الاجتماعية نفسها بهدوء وبتأثير نابعين من قدرة البناء الفني وتبرز في المقدمة اجيال من الشعراء : صلاح احمد ابراهيم ، كجراي تاج السر الحسن ، جيلي عبد الرحمن ، محمد المكي ابراهيم، الحاردلو، مصطفى سند ، مبارك حسن ، ومحمد عبد الحي . ومن القصاصين : الزبير علي ، الطيب زروق ، ابو بكر خالد ، عبد الله ابراهيم ، احمد الامين ، البشير ، ومصطفى مبارك ، وتنسجم ثورة المضمون والشكل لدى الادباء مع دوافع ثورة التحرر السياسي والاجتماعي .

وفي صمت الحكم العسكري ووحشته تعلم الادب الهمس والرمز. واقتضى هذا سلوكا فنيا يستوعب هذا المنحى ... واخرج كجراي « الصمت والرماد » الذي شهد فيه عن تشرين والرياح . تشرين الثاني الذي شهد مولد الحكم العسكري ، والذي اسماه الزين عباس « الشهر العاطل » وانتشر في السر شعر يتداوله الناس في المناشير:

ولدت سفاحا فما انت حر فواجه مصيرك او فانتحر

وكتب تاج السر « اضواء على الظلام » ، ملحمة ثائرة متفائلة واستوحى الشعر انتفاضات الشعب في الماضي كما عند محمد المكي ابراهيم في قصيدة « عبد الفضيل الماظ » احد الثوار الشهداء سنة ١٩٢٤ .

وحين انفجر الغيظ والسهد والتطلع بثورة الشعب في اكتوبر ١٩٦٤ ، كان الشعر يطبع ويوزع في عين المكان الذي تطبع فيه المنشورات السياسية للجبهة الوطنية للهيئات بجامعة الخرطوم .. منتهى الشرف والتشريف .

حقيقة عنيدة تستوقفنا في هذا اللقاء الافريقي الاسيوي الكريم عند منحى الشعر في بلادنا وقضايا تحرر الشعوب ، فالسودان قنطرة اللقاء العربي الزنجي في افريقيا ، فهو ينسجم بعروبته واسلامه مع كثرة من اقطار اسيا وافريقيا . وبزنجيته مع التحرر الافريقي. ولقد كان للوضع الممتاز لحركة التقدم فيه ، الاثر في اشاعة مفاهيم التضامن القاري . لقد خرج شعراء وادباء السودان في موكب العصر ضد الجريمة البشعة في الكونغو .. كان لومومبا القافية المجنحة للشعر ، والغضب الرصين في النثر وفي (غضبة الهبباي) لصلاح احمد ابراهيم ينفرد جزء باسم « اللومومبيات » .. ولقد وقف الشعر يحمل ارادة الشعب وسخطه ازاء تخاذل الحكومة ورجعيتها حين ولغت مع احد الوالغين في دم الكنغو الطعين .

ونجد شاعرا مثل الفيتوري نذر نفسه خالصة لافريقيا ، وظلت افريقيا آله وصليبه وخلاصه . وطوف تاج السر الحسن على اسيا وافريقيا شوقا شاعريا قطرا قطرا ، وبطلا بطلا .

وظلت مصر تحتل الصدارة في حساسية الادب السوداني لتقدمها وخيرها عليه ، وما يمر يوم حتى يكتشف اهل السودان المزيد من الروابط التي توثق عرى العلاقة بين الشعبين .. ولقد ظل الشعر ابدا صوت هذه العلاقة العريقة الاصيلة ... كما ظل صوت الكفاح المشترك في جانبي وادي النيل وفي كل الوطن العربي الكبير ، وصوت التضامن الاسيوي الافريقي ...

ظاهرة هائلة ، ان يتسع مثل هذا الشعر التضامني في السودان حتى يشكل دواوين كاملة واجزاء منها ولكنها مع ذلك وببساطة مردودة الى تقاليد ظلت حركة التقدم ترسيها في بلادنا والى وضع للسودان يمت بوشائج عميقة الى كل دول اسيا وافريقيا . فينبض بما تنبض، وينفعل بما تضطرم به ، ويرجو مثلما ترجو .

صدر حديثا

دراسات

في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الثمن ٢٥٠ ف. ل

منشورات دار الاداب